حضارة وادي الرافدين

ما هو المقصود بالحضارة ؟ تطرق الكثير من الباحثين الى تعاريف متعددة للحضارة منها اعتبار الحضارة اسلوب معيشي يعتاد عليه الانسان من تفاصيل صغيرة الى تفاصيل اكبر يعيشها في مجتمعه ولا يقصد من هذا استخدامه الى احدث وسائل المعيشة بل تعامله هو كإنسان مع الاشياء المادية والمعنوية التي تدور حوله وشعوره الانساني تجاهها , كما عرفها البعض على انها نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة في انتاجه الثقافي اذ تعتمد الحضارة على اربعة موارد وهي الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والاجتماعية والدينية وباختصار انها الرقي والازدهار في جميع الميادين والمجالات، كما برزت لدينا اهم الحضارات إلا وهي حضارة بلاد الرّافدين واحدة من الحضارات القديمة في الشّرق الأدنى. وتميّزت هذه الحضارة بقيامها عند نهري دجلة والفرات اللذان لعبا دوراً كبيراً في نشوء هذه الحضارة. وقد ساعد وجود هذين النّهرين على استقرار النّاس وارتقاء حضارتهم. وتعدّ حضارة بلاد الرّافدين أقدم حضارة في التّاريخ الإنساني، وقد كانت آثار هذه الحضارة واضحةً في كل من أكّاد، وبابل، و آشور. وحكمت العديد من الممالك أرض بلاد الرّافدين , فقد عرف هذا القطر بعدُة اسماء خلال تاريخه الطويل ، وقد اختلفت اراء الباحثين في اصله ومعناه ، وممكن حصر هذه الآراء في ثلاثة احتمالات وهي:

1- ان الاسم عراق عربي الاصل انه معرب من اصل فارسي يرجع في اصله الى تراث لغوي من العراق القديم , فاذا اخذنا بالأصل العربي وجدناه عده اراء في معنى عراق منها انه((الشاطئ)) اي شاطئ البحر او سيف البحر او مطلق الشاطئ .
2- وان اهل الحجاز يسمون البلاد القريبة من البحر (عراقاً) لدنوهُ من البحر ولأنه على شاطئ دجلة والفرات ايضا , او ان معناه حرف الجبل او سفوح الجبال المتاخمة لأطرافه الشمالية والشرقية.
3- اما الذين يرون الاصل الفارسي فقد اختلفوا ايضا في معناه, فمنهم من ذهب الى انه مأخوذ من اصل يعني الساحل في الفارسية (إيراه الذي عرب الى ايراق ثم عراق) كما يرى الباحث الآثاري هرتسفلد من ان ((عراق)) معرب من((إيراك)) الفارسية التي تعني البلاد
4- اما الاحتمال الثالث اي إرجاع لفظ عراق الى تراث لغوي من العراق القديم مع انه لا يمكن الجزم به او ترجيحه على احد الرأيين السابقين , وخلاصتي ان لفظ عراق يرجع في اصله الى تراث لغوي اما من السومريين او من قوم اخرين من غير السومريين ولا الساميين استوطنوا السهل الرسوبي منذ ابعد

حصور ما قبل التاريخ فيه وانه مشتق من كلمة تعني المستوطن و لفظها ((اوروك)) او ((اونوك))(Uruk.Unuk) , وهي الكلمة التي سميت بها المدينة السومرية الشهيرة (الوركاء) كما ان الكلمة نفسها تدخل في تركيب اسماء جملة مدن شهيرة قديمة مثل مدينه(اور) ومدينة (لارسا) وغيرهما, ويرى المؤرخ المعروف (أومستد) ان اول استعمال لكلمة عراق ورد في العهد((الكشي)) منتصف الالف الثاني قبل الميلاد في وثيقه تاريخيه ترقى في تاريخها الى حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد وجاء فيها اسم اقليم على هيئة ((اريقا)) الذي صار على ما يرى الباحث الاصل العربي لبلاد بابل .

5- كما جاءت تسمية اخرى وهي بلاد اكد وبلاد سومر او على الاصح (شومر) جاءت في الكتابات الاكدية السامية على هيئه ((مات شومريم)) بلاد السومريين) وتكتب بمجموعه العلامات المسمارية (Ki-en-gi) ولا يعلم معناها بوجه التأكيد وقيل في معناها الحرفي انها تعني(ارض سيد القصب) وتلفظ العلامتان المعبر المُعبر بهما عن بلاد اكد في اللغة الاكدية (مات آكديم) (بلاد الاكديين) , هذا ولا توجد حدود طبيعية واضحه بينما كان يسمى بلاد اكد وبلاد سومر بيد انه يمكن القول بوجه عام ان القسم الاوسط من السهل الرسوبي اي من حدود بغداد او فوق بغداد الى جنوب مدينه الحلة كان (بلاد آكد) .

6- كما استعمل عدد من الكتاب اليونان والرومان واولهم المؤرخ هيرودوتس مصطلح بلاد (بابيلونيا) وبلاد اشور(اسريا) لأطلاقه على القطر كله او الاجزاء الوسطى والجنوبية منه, كما استعملوا تسمية (كالديه) اي بلاد الكلدانيين نسبة الى الكلدانيين الاراميين الذين اسسوا الدولة الاكدية ما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد

7- ورد مصطلح اقليم بابل او ارض بابل في استعمال المؤرخين والبلدانيين العرب، كما ظهرت التسمية الاغريقية عند اليونان والرومان بالمصطلح الجغرافي المعروف (بلاد ما بين النهرين) اي ميزوبوتامية وهو المصطلح الذي شاع استعماله عند الكتاب الاوروبيين لإطلاقه على هذه البلاد , فقط شاع استخدام هذه التسمية بشكل واسع وكبير جدا لإطلاق هذا المصطلح على الجزء المحصور ما بين دجله والفرات, اما انتشار استعمال هذا المصطلح الجغرافي من بعد ذلك في اللغات الاوروبية فكان بوجه خاص من بعد ترجمة التوراة الى اليونانية واللغات الاوروبية اذ جاء في التوراة ذكر

الاقليم المسمى (آرام نهرايم) الذي يعني ((آرام)) النهرين(اي بلاد ما بين النهرين) والذي يقصد به الارض الكائنة ما بين نهري دجله والفرات.

- **الموقع**

كان لموقع العراق الجغرافي اثر مهم في سير تاريخه سواء كان ذلك من ناحية الطقس والمناخ والزراعة والحياة الاقتصادية بوجه عام اما من الناحية تركيب سكانه التاريخي واتصالاته بالأقطار الاخرى والاقوام المجاورة الى غير ذلك مما للموقع الطبيعي من نتائج مؤثره في سير التاريخ والحضارة

فالعراق كما هو معروف يقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة اسيا ويربط القارات التاريخية الثلاث اسيا وافريقيا واوروبا بصوره غير مباشره ولهذا الموضع اهميه استراتيجية وتجاريه ولا سيما في العصور القديمة واستمر كذلك الى العصور الحديثة تقريبا حيث كان ملتقى طرق القوافل التجارية للاتصال بين البحر المتوسط والمحيط الهندي والشرق الاقصى والهند بالطرق البريه ثم عن طريق الخليج العربي الى القاره الهندية ولكن فقد هذه الاهمية التاريخية بعد تحول الطرق التجارية البحرية العالمية على اثر اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح وفتح قناه السويس (القرن التاسع عشر) حيث صار الاتصال التجاري مباشره بالهند وجنوبي شرقي اسيا بدون خليج العربي.

كما تميز مناخه بانه ما بين المناخ الصحراوي الحار وبين مناخ حوض البحر المتوسط المعتدل ولذلك تكون درجات الحرارة في المنطقة الجنوبية اعلى منها في المناطق الشمالية لتنوع ارض العراق بالنسبة الى اجزائه الطبيعية التي يتكون منها كما ان لهذا الموقع اثر مهم في سير تاريخه وتركيب سكانه التاريخي كما يمكن ان نميز عده اجزاء في اراضي العراق الطبيعية تختلف بعضها عن بعض بفروق واضحة من السهول الرسوبية الى هضاب وبوادي ونجاد الى منطقه جبليه وشبه جبلية او متموجة.

- **المنطقة الجنوبية وامتداد السهل الرسوبي**

تعد منطقة السهل الرسوبي (الفيضي) أحدى الأقسام الرئيسة الأربعة التي تشكل سطح ارض بلاد الرافدين وتبلغ نحو (20.5%) من مساحة بلاد الرافدين الكلية , أو ما يعادل (93000 كم) وتمتد بشكل مستطيل من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي إذ يبلغ طوله وبخط مستقيم ما يقارب من (360 ميل) ويسجل أقصى

اتساعه نحو (72 ميل) بين غرب وشرق نهر دجلة وتقع المنطقة بين خطي طول (43 - 23 48) درجة شرقاً وبين خطي عرض (27 29 - 20 34) درجة شمالاً ويبدأ السهل الرسوبي بالخط الواصل بين مدينتي سامراء أو مدينة بلد على نهر دجلة , ومدينة هيت على الفرات شمالاً ليصل الى مصب شط العرب في الخليج العربي جنوباً

- **طبيعة الأرض** :

لابد من بيان التكوين الجيولوجي لمنطقة السهل الرسوبي وشرح العوامل المؤثرة فيه إذ تعد من أهم الأقسام لسطح بلاد الرافدين تكويناً , واهم أجزائها بشرياً اختلف الباحثون حول التكوينات الفيضية في منطقتي دجلة والفرات المكونة للسهل الرسوبي (الفيضي) وفيما يخص حدود بداية هذا السهل الذي يتعلق بمنطقة نهر دجلة وتمتد بين تكريت وبلد وتتضمن منطقة تمتد بين الرمادي وهيت على الفرات(ويرتبط هذا الاختلاف حول أبعاد السهل الرسوبي ومساحته إلا أن حدوده الجغرافية تمتد بين الحافة الجنوبية لسلسلة جبال حمرين والحد الجنوبي لأرض الجزيرة شمالاً والخليج العربي جنوباً وبين الأراضي الإيرانية شرقاً وحافة الهضبة غرباً يعتبر السهل الرسوبي (الفيضي) من احدث أقسام سطح بلاد الرافدين تكويناً وأهمها بشرياً واقتصادياً على الرغم من تشابه تضاريسها لكونها ارض زراعية خصبة تكونت نتيجة ترسبات نهري دجلة والفرات مكونة دلتا شديدة الانبساط إلا أنها تختلف من مكان لأخر من حيث ذرات التربة وعمق الترسبات , فترسبات المنطقة الجنوبية من السهل الرسوبي التي جلبها نهر الكارون والأودية الصحراوية تكون أكثر خشونة من ترسبات نهري دجلة والفرات لان سرعة جريانهما تكونت ترسبات الحافة الغربية للسهل من مواد رملية ويعود السبب إلى اختلاف تكوين السهل الرسوبي ليس فقط نهري دجلة والفرات هما المسؤولان الوحيدان عنه بل اشترك كل من نهر الكارون والكرخة من الناحية الجنوبية والشرقية للسهل الرسوبي فضلاً عن وديان أخرى تجري من الناحية الغربية وبدورها مجتمعة كونت دلتا في شمال الخليج العربي ومع مرور الوقت تحولت هذه البحيرات إلى اهوار ينمو فيها القصب والبردي إذ اختلف الباحثون من الجيولوجيين والآثاريين والجغرافيين وغيرهم من الباحثين في أصل تكوين جيولوجية القسم الجنوبي من بلاد الرافدين وربطت تكوين السهل الرسوبي بشكل مباشر بحركة مياه الخليج وتكوين رأس الخليج ومن الناحية التكوينية يعد الخليج العربي امتداداً لحوض ارض الرافدين , ويكونا نهري دجلة والفرات الذراعين الطويلين للخليج العربي ويتحدان عند شط العرب وهو المدخل الطبيعي للسهل الرسوبي من الجهة الجنوبية لبلاد الرافدين إذ كان الرأي السائد بحسب النظرية القديمة والتي تعود للعالم الجيولوجي دي موركان

(De-Morgan) سنة (1900) أن الخليج العربي تقهقر أمام ترسبات نهري دجلة والفرات في منطقة السهل الفيضي المنخفضة إذ أن الخليج العربي كان يمتد إلى شمال حدوده الحالية إذ يرى موركان بأن ارض القسم الجنوبي من الفرات أخذت في الهبوط نتيجة حركة التوائية تعرضت لها خلال الزمن الجيولوجي الثالث ومنها تكونت الجبال في الشمال والشمال الشرقي من العراق لكن بالمقابل أصبح القسم الجنوبي بشكل التواء مقعر(Geosyhclinal Basin) مما ساعد على توغل مياه الخليج إلى داخل الالتواء المقعر حتى وصل إلى شمال بغداد , واستمرت هذه الفكرة حول الخليج إلى حين ظهور نظرية جديدة للجيولوجيين (ليز و فالكون و رايت) التي أشارت إلى عكس ما ورد في النظرية السابقة وأعلنوا أن السهل الرسوبي (الفيضي) تكون نتيجة التواء القشرة الأرضية مما أدى إلى ارتفاع بعض الأراضي وانخفاض البعض الأخر وان هبوط قاع الخليج وارتفاع مستوى البحر قد طمر مدن وقرى قديمة عدة تحت الرواسب أو تحت مياه الخليج فضلاً عن الرواسب التي تفرغها كل من نهري دجلة والفرات ونهر الكارون في منخفضات القسم الجنوبي من السهل الفيضي وهذا الحوض ولا يزال ينخفض بسبب ثقل الرواسب وبسبب حركة تكوينية ((Tectonic تلتها هو ارتفاع الانخفاض في مستوى سطح الأرض مشكلاً انحناء محدب ساده الهبوط الذي سمح باستمرار عملية الإرساب التي تتمكن من ملئ المنخفضات مثل الاهوار هي الآن فهي بمثابة مستودع لاستقرار رواسب الأنهار من دون أن يرتفع الحوض فوق مستوى سطح البحر لذا فهذه النظرية تؤكد على إن رأس الخليج لم يكن يوماً بعيداً عن موقعه الحالي .

إلا أن هناك اتفاق بين الآثاريين والجيولوجيين إن القسم الجنوبي من العراق قد شهد حالات من التغيرات الطبوغرافية والتي ربما تكون نتيجة غوص الأرض أو امتداد مياه الخليج العربي لذا فمن الممكن الافتراض إن الخليج العربي تقدم إلى شمال مدينة أور خلال ذروة عصر الدف بين (5000 – 3500 ق.م) وهذا ما يفسر انتشار المواقع الأثرية في القسم الجنوبي من العراق

الأرض الجديدة التكوين (السهل الرسوبي) يتصف سطحها بالانبساط وما ساعد على هذا الانبساط هو قلة انحدار مجري نهري دجلة والفرات ضمن حدود هذه المنطقة . وقد تكون هذا السهل من ترسبات الأنهار مكونتاً الدلتا التي تمتد نحو الخليج العربي ونظراً لقلة انحدار السهل فقد اثر على تصريف المياه المتمثلة بمجرى نهري دجلة والفرات وفروعها مما جعل مجاريها واسعة قليلة العمق ذات مستوى الأراضي المحيطة بها والأمر الذي جعل أمكانية فيضانها على المناطق المحيطة بها , كما تميل مجاري الأنهار إلى الالتواء في مناطق عدة مما أشارت الدلائل التاريخية إلى كثيرة تغيير الأنهار لمجاريها المختلفة التي تشق السهل

الرسوبي فضلاً عن الترسبات التي تحملها الأنهار وبشكل مستمر مما جعل لهذه الأنهار أكتاف أعلى من الأرض السهلية المجاورة بما لها من فائدة الكبيرة من الناحية الزراعية ومنها إمكانية وبهذا فقد اتصف السهل الرسوبي (الفيضي) بأربع صفات طبيعية واضحة وهي :-

أولاً– تنحدر ارض السهل الرسوبي من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي حتى يصبح معدل ارتفاعه في الجنوب (صفراً) اي بمستوى سطح البحر

ثانيا: يخلو السهل الرسوبي من المرتفعات إلا بعض الكثبان رملية الواطئة ويبلغ ارتفاعها (20-30 قدم) عن السهل المجاور

ثالثا: إن الصفة الأبرز للسهل الرسوبي هي المنخفضات المغمورة بمياه النهرين (الاهوار) والتي تمتد على سطح السهل على جانبي نهري دجلة والفرات في جنوب السهل الرسوبي

رابعا: تباين انحدار سطح السهل الرسوبي فضلاً عن الانحدار التدريجي باتجاه الجنوب وله انحدارات متعاكسان بين الأجزاء المتقابلة لنهري دجلة والفرات إذ يلاحظ ارتفاع مستوى وادي نهر الفرات في بداية السهل الرسوبي (بين الكوت والديوانية) عن مستوى المنطقة المقابلة في وادي نهر دجلة (بين بغداد والكوت) أما في القسم المتبقي من السهل الرسوبي في الجنوب فيحدث العكس

كما ارتبط نشوء حضارة وادي الرافدين وازدهارهما منذ البداية بوجود النهرين الكبيرين دجلة والفرات فعلى ضفاف الانهار التي شقت منطقة السهل الرسوبي تأسست الكثير من القرى الزراعية الاولى في بلاد الرافدين التي مهدت بدورها الي قيام اقدم الحضارات القديمة في العراق القديم .